

خطبه الجمعة - الخطبة ٢٤ : أثر القدوة في الناس .

لضييلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٧٥-٢-٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى :

الحمد لله الذي سبحت الكائنات بحمده ، وعنت الوجوه لعظمته ومجده ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه واعترته الطيبين الطاهرين .

المواقف والأعمال الحسنة خير طريق لتعليم :

يتسائل المرء أحياناً ، عن السر الدفين الذي استطاع به الأنبياء والمرسلون إرساء الفضائل في مجتمعاتهم ، وتحقيق السمو في نفوس أتباعهم ، فكيف استطاع نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم ، أن يغير وجه العالم في ربع قرن ، وأن يقوض عرشي قيصر و كسرى في حين أن العالم الإسلامي اليوم طافح بالمساجد والمكتبات ، والمعاهد ، والجامعات ، والعلماء والخطباء ومع ذلك تجد أكثر الناس يتعاطفون مع الإسلام بمشاعرهم ولا يطبقونه في سلوكهم .

ولعل السر في هذا ، ولا أقطع به ، أن الأنبياء صلوات الله عليهم علموا الناس بموافقتهم وأعمالهم، قبل أن يعلوهم بأسنتهم وأقوالهم .

والناس ، كما يقول الإمام الغزالى :

(لا يتعلمون بأذانهم بل بعيونهم)

فالآم التي تناهى على ابنها عشرات الدروس في الصدق ، ثم تكذب على أبيه أمامه مرة واحدة ليست جديرة أن تعلم ابنها شيئاً ، وليس ابنها مستعداً أن يصغي إلى كلماتها إلا مجاملة لأن قدسيّة الكلمة عنده قد سقطت ، وقوتها قد تلاشت ، يقول أحد الكتاب :

إن مثلاً واحداً أنفع للناس من عشرة مجلدات ، لأن الأحياء لا تصدق إلا المثل الحي لهذا كان النبي الواحد بجهاده واستشهاده في سبيل الخير أهدي للبشرية من آلاف الكتاب الذين ملئوا بالفضائل والحكم بطون المجلدات إن أكثر الناس يستطيعون الكلام عن لا تصدق إلا المثل الحي



المثل العليا ، ولا يستطيعون أن يعيشواها ، لهذا كان الأنبياء قليلين ، وكانت حياتهم إعجازاً ، وما من رجل دين يستطيع أن يثير في النفس إحساساً علويّاً حقاً ، إلا إذا كان في طريق حياته مستقيماً السلوك سليم الأسلوب ، بغير ذلك يختل التناقض بين الغاية والوسيلة ، وبهذا الاختلال يدخل النفس شعور الشك في حقيقة رجل الدين .

قال سيد المربيين ، وإمام المعلمين عليه صلاة رب العالمين :

عن أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((إنما بعثت معلماً ، إنما بعثت لأنتم مكارم الأخلاق))

[أخرجه البزار في مسنده]

لقد علمنا صلى الله عليه وسلم بموافقه ، والتعليم بالموافقة أبلغ من التعليم بالألفاظ ، لأنه يقدم الحقيقة والبرهان عليها ، والحقيقة وتطبيقاتها ، والحقيقة ونتائجها في الفرج والمجتمع ، جاء في كتاب رياض الصالحين ، باب الوعظ والإرشاد ، عن معاوية بن الحكم السلمي قال :

عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال :

((بَيْتًا أَنَا أَصْلِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ عَطَسَ رَجُلًا مِّنَ الْقَوْمِ فَقُتِّلَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُتِّلَ وَأَكْلَ أُمِّيَّاهُ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَادِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصْمَتُونَنِي لَكَنِّي سَكَتُ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَابِي هُوَ وَأَمِّي مَا رَأَيْتُ مُعْلِمًا فِيلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ فَوَاللَّهِ مَا كَهَرْنِي وَلَا ضَرَبْنِي وَلَا شَتَمْنِي قَالَ إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِّنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالْتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ أَوْ كَمَا قَالَ))

[أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود والنسانى]

تعلم وتحقق وتطبيق :

وتؤكدنا على أن التعليم بالموافقة ، و توضيحاً لأسلوب التعليم المحمدي قال عليه الصلاة والسلام: عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْمَرءُ الْمُسْلِمُ عِلْمًا ثُمَّ يُعْلَمَهُ أَخَاهُ الْمُسْلِمُ))

[أخرجه ابن ماجة]



أيها الإخوة ؛ إن عظمة هذا الحديث تكمن في كلمة (ثم) فهي للترتيب على التراخي كما يقول علماء النحو ، أي يجب أن يكون بين تعلم العلم وتعليمه فسحة من الوقت .

أثر القدوة في الناس

فقبل أن يسارع المرء إلى نقل ما تعلمه لآخرين ، عليه أن يتحقق أولاً من حقيقة هذا العلم ، أن ينافشه مع نفسه ، أن يعرضه على القرآن ويبحث عن دليله فيه ، أن يعرضه على المنطق السليم ، أن يعرضه على الواقع ، أن يرى نتائجه في الفرد والمجتمع ، أن يرى مدى ما يحقق من سعادة للإنسان في دنياه وأخراه .

-هذا معنى ينطوي تحت كلمة ثم .

-أي أن يتحقق من العلم الذي تعلمه .

و قبل أن يسارع المرء إلى نقل ما تعلمه لآخرين عليه أن يطبقه بنفسه ليكتشف الخير الذي ينطوي عليه ، وليتنوّق منعكسته النفسية ، وعندما يصبح لكلامه قوة تهز الجبال ، وليبيانه سحراً يأخذ بالأباب ، وهو بهذا يقطع الطريق على أولئك الذين يشكّون بالدين ، وبرجاله زاعمين أن دعاته يأمرُون بما لا يأمرون به ، وينهون عما لا ينتهون عنه ، لذلك جاء في الحديث القديسي :

((يا عيسى بن مريم ، عظ نفسك فإن وعظتها فعظ غيرك ، وإلا فاستح مني))

فالمرء إذا تحقق مما تعلم وعمل بما علم ، تمكن من علمه ، وقوى موقفه ، وأثر فيمن حوله ، وقطع الطريق على الذين يصدون عن سبيل الله .

-هذا معنى ثان ينطوي تحت كلمة (ثم) .

و قبل أن يسارع المرء إلى نقل ما تعلمه لآخرين عليه أن يفتح قلوبهم قبل أن يفتح عقولهم ، عليه أن يغزوها بالمودة قبل أن يغزوها بالحق عليه أن يمهد لنقل علمه بالكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة ، والمودة البالغة ، والخدمة الخالصة ، والمعونة الصادقة ، والعفو الكبير والحلم والواسع ، لذلك جاء في الحديث الشريف :

أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((رأس العقل بعد الإيمان ، التودد إلى الناس))

[أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط]

وهكذا ، أيها الإخوة ؛ نجد أن بين تعلم العلم وتعليمه فاصلاً يجب أن يُملأ بالتحقيق والتطبيق ، والتمهيد بالمودة .

أما لم عليه الصلاة والسلام وصف تعليم العلم بعد تعلمه بالصدقه إذ قال :

عن أبو هريرة رضي الله عنه قال : أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْمَرءُ عِلْمًا
ثُمَّ يُعَلِّمُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ))

[أخرجه ابن ماجه]



فهذا مشتق من الصدق ، صدق الإنسان في محبة خالقه ، ومربيه وترجمة هذه المحبة إلى محاولة الإنقاذ ذلك الإنسان الضال الضائع القلق من حرف المعصية والشتات ، قال تعالى :

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَانَمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَانَمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾

[سورة المائدة]

ويعني بها النفس .

فيما أيها الآباء والمربون ، علموا أولادكم ومن يلوذ بكم علمًا صحيحًا نافعًا ، وعلموهم بموافكم قبل أن تعلموهم بالسننكم ، وفتحوا قلوبهم بالمودة قبل أن تفتحوا عقولهم بالحقيقة .

حكمة وقوة واستقامة ، هذا عمر :

ذات يوم يتلقى سيدنا عمر من أحد ولاته هدية من الحلوى ، ولا تكاد توضع بين يديه حتى يسأل الرسول الذي يحملها — ما هذا ؟

قال : حلوى يصنعها أهل أذربيجان ، وقد أرسلني بها إليك عتبة بن فرقان ، وكان والياً على أذربيجان ، فذاقتها عمر ، فوجد لها مذاقاً شهياً فعاد يسأل الرسول ، أوكل المسلمين هناك يطعمون هذا ؟

قال : الرجل لا ، هذا طعام الخاصة ، فأعاد عمر إغلاق الوعاء جيداً وقال للرجل أين بغيرك ؟ خذ حملك هذا وارجع به لعتبة ، وقل له ، عمر يقول لك : اتق الله ولا تشبع من طعام حتى يشبع منه سائر المسلمين قبلك .

أيها الإخوة ؛ إنه قوة عمر ، وهبته ، وشدة تأثيره في الناس ، كانت من استقامته وموافقه المشرفة .

وكان إذا سن قانوناً ، أو حظر أمراً جمع أهله أولاً وقال لهم :

"إني قد نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقعم وقعوا ، وإن هبتم هابوا ، وإن الله لا أؤتي برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه ، إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني فمن شاء منكم فليتقدم ، ومن شاء فليتأخر ." أرأيتم أن القربى من عمر ليست ميزة بل مسؤولية ، وهذا هو مبعث قوته . أو كما قال .

أيها الأخوة الكرام ؛ حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وصلوا ما بينكم وبين ربكم تسعدوا ، واعلموا أن ملك الموت قد تخططنا إلى غيرنا ، وسيتخطى غيرنا إلينا ، فلنتحذر حذرنا ، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هوها وتمنى على الله الأماني .

والحمد لله رب العالمين

الخطبة الثانية :

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده
رسوله صاحب الخلق العظيم .

الدعاة :

اللهم اهدنا فيما هديت ، وعافنا فيما عافيت ، وتولنا فيما توليت ، وبارك لنا فيما أعطيت ، وقنا
واصرف عنا شر ما قضيت ، فإنك تقضي بالحق ولا يقضى عليك ، اللهم أعننا ولا تحرمنا ،
أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارض عنا ، اللهم صن وجوهنا باليسار ولا
تبذلها بالإفتار ، فنسألك شر خلقك ، ونبتلى بحمد من أعطى ، وذم من منع ، وأنت من فوqهم ولـي
العطاء ، وبـيدك وحدك خزائن الأرض والسماء .

اللهم اهدنا لصالح الأعمال لا يهدي لصالحها إلا أنت ، واصرف عنا شر الأعمال لا يصرفها عنا
إلا أنت .

والحمد لله رب العالمين